الهجرة النبوية فوائد ودروس وعبر

المدينة موطن الوافدين والمهاجرين من المسلمين على تنوع بيئاتهم

كانت فرحة المؤمنين من سكان يثرب من أنصار ومهاجرين بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصوله إليهم سالما، فرحة أخرجت النساء من بيوتهن والولائد، وحملت الرجال على ترك أعمالهم، وكان موقف يهود المدينة موقف المشارك لسكانها في الفرحة ظاهرا، والمتألم من منافسة الزعامة الجديدة باطناً، أما فرحة المؤمنين بلقاء رسولهم فلا عجب فيها، وهو الذي أنقذهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وأما موقف اليهود فلا غرابة فيه، وهم الذين عرفوا بالملق والنفاق للمجتمع الذي فقدوا السيطرة عليه، وبالغيظ والحقد الأسود ممن يسلبهم زعامتهم على الشعوب، ويحول بينهم وبين سلب أموالها باسم القروض، وسفك دمائها باسم النصح والمشورة، وما زال اليهود يحقدون على كل من يخلص الشعوب من سيطرتهم، وينتهون من الحقد إلى الدس والمؤامرات ثم إلى الاغتيال إن استطاعوا، ذلك دينهم، وتلك جبلتهم.

ويستفاد من استقبال المهاجرين والأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم مشروعية استقبال الأمراء والعلماء عند مقدمهم بالحفاوة والإكرام، فقد حدث ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان هذا الإكرام وهذه الحفاوة نابعين من حب للرسول، بخلاف ما نراه من استقبال الزعماء والحكام في عالمنا المعاصر، ويستفاد كذلك التنافس في الخير وإكرام ذوي العلم والشرف، فقد كانت كل قبيلة تحرص على أن تستضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعرض أن يكون رجالها حُراسًا له، ويؤخذ من هذا إكرام العلماء والصالحين، واحترامهم وخدمتهم.

تضحية عظيمة

كانت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من البلد الأمين، تضحية عظيمة عبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت».

وعن عائشة –رضي الله عنها– قالت: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى، وكان واديها يجري نجلا– يعني ماء آجنا– فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم، وصرف الله ذلك عن نبيه، قالت: فكان أبو بكر، وعامر بن فهيرة وبلال في بيت واحد فأصابتهم الحمى، فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيادتهم فأذن، فدخلت إليهم أعودهم، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك فدنوت من أبي بكر فقلت: يا أبت كيف تجدك؟ فقال:

كل امرئ مصبّح في أهله
والموت أدنى من شراك نعله

قالت: فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول، ثم دنوت من عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك يا عامر؟ فقال:

إن الجبان حتفه من فوقه
لقد وجدت الموت قبل ذوقه
كالثور يحمي جلده بروقه

قالت: فقلت: والله ما يدري عامر ما يقول، قلت: وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى اضطجع بفناء البيت، ثم يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بواد وحولي إذخر وجليل

■ حرص القبائل على استضافة النبي دليل على استحباب التنافس في الخير وإكرام ذوي العلم والشرف

■ بقاء الدعوة في أرض قاحلة لا يخدمها بل يعوق مسارها ويشل حركتها ويعرضها للانكماش

وهل أَرِدَنْ يومًا مياه مجنة
وهل يَبْدُوَنْ لي شامة وطفيل

قالت: فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وانقل حماها إلى الجحفة، اللهم بارك لنا في مدها وصاعها».

وقد استجاب الله دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم وعوفي المسلمون بعدها من هذه الحمى، وغدت المدينة موطناً ممتازاً لكل الوافدين والمهاجرين إليها من المسلمين على تنوع بيئاتهم ومواطنهم.

مكافأة النبي لأم معبد

وقد روي أنها كثرت غنمها، ونمت حتى جلبت منها جلباً إلى المدينة، فمر أبو بكر، فرآه ابنها فعرفه، فقال: يا أمه هذا الرجل الذي كان مع المبارك، فقامت إليه فقالت: يا عبد الله من الرجل الذي كان معك؟ قال: أو ما تدرين من هو؟ قالت: لا، قال: هو نبي الله، فأدخلها عليه، فأطعمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاها. وفي رواية: فانطلقت معي وأهدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا من أقط ومتاع الأعراب، فكساها وأعطاها، قال: ولا أعلمه إلا قال: وأسلمت، وذكر صاحب (الوفاء) أنها هاجرت هي وزوجها وأسلم أخوها خنيس واستشهد يوم الفتح.

مواقف خالدة لأبي أيوب

قال أبوأيوب الأنصاري: «ولما نزل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي نزل في السفل وأنا وأم أيوب في العُلْو، فقلت له: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل، فقال: «يا أبا أيوب: إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سُفل البيت» قال: فلقد انكسر حُب لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفا أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شيء يؤذيه».

هجرة علي

بعد أن أدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمانات التي كانت عنده للناس، لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم وأدركه بقباء بعد وصوله بليلتين أو ثلاث، فكانت إقامته بقباء ليلتين، ثم خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يوم الجمعة وقد لاحظ سيدنا علي مدة إقامته بقباء امرأة مسلمة لا زوج لها، ورأى إنسانا يأتيها من جوف الليل، فيضرب عليها بابها، فتخرج إليها فيعطيها شيئًا معه، فتأخذه، قال: فاستربت بشأنه، فقلت: يا أمة الله، من هذا الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه، فيعطيك شيئا لا أدري ما هو؟ وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟ قالت: هذا سهل بن حنيف بن وهب، وقد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءني بها، فقال: احتطبي بهذا، فكان علي يأثر ذلك من شأن سهل بن حنيف حين هلك عنده بالعراق.

الهجرة من سنن الرسل

إن الهجرة في سبيل الله سنة قديمة، ولم تكن هجرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بدعا في حياة الرسل لنصرة عقائدهم، فلئن كان قد هاجر من وطنه ومسقط رأسه من أجل الدعوة حفاظاً عليها وإيجاد بيئة خصبة تتقبلها وتستجيب لها، وتذود عنها، فقد هاجر عدد من إخوانه من الأنبياء قبله من أوطانهم لنفس الأسباب التي دعت نبينا للهجرة.

وذلك أن بقاء الدعوة في أرض قاحلة لا يخدمها بل يعوق مسارها ويشل حركتها، وقد يعرضها للانكماش داخل أضيق الدوائر، وقد قص علينا القرآن الكريم نماذج من هجرات الرسل وأتباعهم من الأمم الماضية لتبدو لنا في وضوح سنة من سنن الله في شأن الدعوات، يأخذ بها كل مؤمن من بعدهم إذا حيل بينه وبين إيمانه وعزته، واستخف بكيانه ووجوده واعتدى على مروءته وكرامته.

الآيات نزلت في المنافقين المتخلفين عن الرسول في الخندق

تنظيم العلاقات بين المسلمين والآداب في مجلس الرسول

تنتقل آيات سورة النور من تنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء، إلى تنظيمها بين الأسرة الكبيرة.. أسرة المسلمين.. ورئيسها وقائدها محمد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وإلى آداب المسلمين في مجلس الرسول: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (62) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63)».

روى ابن اسحاق في سبب نزول هذه الآيات أنه لما كان تجمع قريش والأحزاب في غزوة الخندق فلما سمع بهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة فعمل فيه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ترغيبا للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فدأب ودأبوا، وأبطأ عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ولا إذنه، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لابد منها يذكر ذلك لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– ويستأذنه في اللحوق بحاجته، فيأذن له. فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله، رغبة في الخير واحتسابا له. فأنزل الله تعالى في أولئك المؤمنين: إنما المؤمنون.. الآية ثم قال تعالى: يعني المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل، ويذهبون بغير إذن من النبي –صلى الله عليه وسلم–: لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم..الآية.

وأيا ما كان سبب نزول هذه الآيات فهي تتضمن الآداب النفسية التنظيمية بين الجماعة وقائدها. هذه الآداب التي لا يستقيم أمر الجماعة إلا حين تنبع من مشاعرها وعواطفها وأعماق ضميرها ثم تستقر في حياتها فتصبح تقليدا متبعا وقانونا نافذا وإلا فهي الفوضى التي لا حدود لها: «إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله» لا الذين يقولون بأفواههم ثم لا يحققون مدلول قولهم، ولا يطيعون الله ورسوله.

■ لا يجوز للمسلمين ترك إمامهم من دون استئذان في حال وجود أمر مهم يقتضي اشتراك الجماعة فيه حتى لا تعم الفوضى

■ مغالبة الضرورة وعدم الانصراف أولى.. والاستئذان والذهاب فيهما تقصير يقتضي استغفار النبي للمعتذرين

«وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه» والأمر الجامع الأمر الهام الذي يقتضي اشتراك الجماعة فيه، لرأي أو حرب أو عمل من الأعمال العامة فلا يذهب المؤمنون حتى يستأذنوا إمامهم كي لا يصبح الأمر فوضى بلا وقار ولا نظام.

وهؤلاء الذين يؤمنون هذا الإيمان، ويلتزمون هذا الأدب، لا يستأذنون إلا وهم مضطرون فلهم من إيمانهم ومن أدبهم عاصم ألا يتخلوا عن الأمر الجامع الذي يشغل بال الجماعة، ويستدعي تجمعها له..ومع هذا فالقرآن يدع الرأي في الإذن أو عدمه للرسول –صلى الله عليه وسلم– رئيس الجماعة بعد أن يبيح له حرية الإذن: «فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم».. [وكان قد عاتبه على الإذن للمنافقين من قبل فقال: «عفا الله عنك! لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين». يدع له الرأي فإن شاء أذن، وإن شاء لم يأذن، فيرفع الحرج عن عدم الإذن، وقد تكون هناك ضرورة ملحة ويستبقي حرية التقدير لقائد الجماعة ليوازن بين المصلحة في البقاء والمصلحة في الانصراف. ويترك له الكلمة الأخيرة في هذه المسألة التنظيمية يدبرها بما يراه.

ومع هذا يشير إلى أن مغالبة الضرورة، وعدم الانصراف هما الأولى، وأن الاستئذان والذهاب فيهما تقصير أو قصور يقتضي استغفار النبي –صلى الله عليه وسلم– للمعتذرين: «واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم». وبذلك يقيد ضمير المؤمن. فلا يستأذن وله مندوحة لقهر العذر الذي يدفع به إلى الاستئذان.

ويلتفت إلى ضرورة توقير الرسول –صلى الله عليه وسلم– عند الاستئذان، وفي كل الأحوال فلا يدعى باسمه:يا محمد أو كنيته:يا أبا القاسم. كما يدعو المسلمون بعضهم بعضا إنما يدعى بتشريف الله له وتكريمه: يا نبي الله يا رسول الله: «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا».

فلابد من امتلاء القلوب بالتوقير لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– حتى تستشعر توقير كل كلمة منه وكل توجيه. وهي لفتة ضرورية. فلابد للمربي من وقار، ولابد للقائد من هيبة. وفرق بين أن يكون هو متواضعا هينا لينا، وأن ينسوا هم أنه مربيهم فيدعوه دعاء بعضهم لبعض.. يجب أن تبقى للمربي منزلة في نفوس من يربيهم يرتفع بها عليهم في قرارة شعورهم، ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير.

ثم يحذر المنافقين الذين يتسللون ويذهبون بدون إذن، يلوذ بعضهم ببعض، ويتدارى بعضهم ببعض.. فعين الله عليهم، وإن كانت عين الرسول لا تراهم: «قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا». وهو تعبير يصور حركة التخلي والتسلل بحذر من المجلس، ويتمثل فيها الجبن عن المواجهة، وحقارة الحركة والشعور المصاحب لها في النفوس، «فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم».

وإنه لتحذير مرهوب، وتهديد رعيب.. فليحذر الذين يخالفون عن أمره، ويتبعون نهجا غير نهجه، ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة أو اتقاء مضرة ليحذروا أن تصيبهم فتنة تضطرب فيها المقاييس، وتختل فيها الموازين، وينتكث فيها النظام، فيختلط الحق بالباطل، والطيب بالخبيث، وتفسد أمور الجماعة وحياتها فلا يأمن على نفسه أحد، ولا يقف عند حده أحد، ولا يتميز فيها خير من شر..وهي فترة شقاء للجميع: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (64)».

«أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» في الدنيا أو في الآخرة. جزاء المخالفة عن أمر الله، ونهجه الذي ارتضاه للحياة. ويختم هذا التحذير، ويختم معه السورة كلها بإشعار القلوب المؤمنة والمنحرفة بأن الله مطلع عليها، رقيب على عملها، عالم بما تنطوي عليه وتخفيه.

وهكذا تختم السورة بتعليق القلوب والأبصار بالله، وتذكيرها بخشيته وتقواه. فهذا هو الضمان الأخير. وهذا هو الحارس لتلك الأوامر والنواهي، وهذه الأخلاق والآداب، التي فرضها الله في هذه السورة وجعلها كلها سواء.

وحده الذي يشع للمسلم النور العاصم من التخبط والهداية الواقية من القنوط

ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر

الصبر ضياء، إذا استحكمت الأزمات وتعقدت حبالها وترادفت الضوائق وطال ليلها فالصبر وحده هو الذي يشع للمسلم النور العاصم من التخبط والهداية الواقية من القنوط. والصبر فضيلة يحتاج إليها المسلم في دينه ودنياه ولابد أن يبني عليها أعماله وآماله وإلا كان هازلا.. يجب أن يوطن نفسه على احتمال المكاره دون ضجر وانتظار النتائج مهما بعدت ومواجهة الأعباء مهما ثقلت بقلب لم تعلق به ريبة وعقل لا تطيش به كُربة يجب أن يظل موفور الثقة بادي الثبات لا يرتاع لغيمة تظهر في الأفق ولو تبعتها أخرى وأخرى بل يبقى موقنا بأن بوادر الصفو لابد آتية وأن من الحكمة ارتقابها في سكون ويقين. وقد أكد الله أن ابتلاء الناس لا محيص عنه حتى يأخذوا أهبتهم للنوازل المتوقعة فلا تذهلهم المفاجآت ويضرعوا لها. «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم». وذلك على حد قول الشاعر: عرفنا الليالي قبل ما نزلت بنا فلما دهتنا لم تزدنا بها علما! ولا شك في أن لقاء الأحداث ببصيرة مستنيرة واستعداد كامل أجدى على الإنسان وأدنى إلى إحكام شؤونه. قال تعالى: «وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور».

والصبر يعتمد على حقيقتين خطيرتين: أما الأولى فتتعلق بطبيعة الحياة الدنيا فإن الله لم يجعلها دار جزاء وقرار بل جعلها دار تمحيص وامتحان والفترة التي يقضيها المرء بها فترة تجارب متصلة الحلقات يخرج من امتحان ليدخل في امتحان آخر قد يغاير الأول مغايرة تامة أي أن الإنسان قد يمتحن بالشيء وضده مثلما يصهر الحديد في النار ثم يرمى في الماء وهكذا».

وكان سليمان عالما بطبيعة الدنيا عندما رزق التمكين الهائل فيها فقال: «هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم». والابتلاء بالأحزان مبهم الأسباب! ويحسن أن نفهم أن أوضاع الناس في الحياة كجيش عبئ للقتال وقد تكلف بعض فرقه بالقتال حتى الموت لإنقاذ فرق أخرى وإنقاذ الفرق الباقية يكون للقذف بها في معارك جديدة ترسمها القيادة حسبما توحي به المصلحة الكبرى فتقدير فرد ما في هذه الغمار المائجة لا ينظر إليه لأن الأمر أوسع مدى من أن يرتبط بكيان فرد معين. كذلك قد يكتب القدر على البعض صنوفا من الابتلاء ربما انتهت بمصارعهم.

■ لم يجعل الله الحياة الدنيا دار جزاء بل مكان تمحيص يقضي المرء فيه فترة تجارب متصلة

وليس أمام الفرد إلا أن يستقبل البلاء الوافد بالصبر والتسليم ومادامت الحياة امتحانا فلنكرس جهودنا للنجاح فيه وامتحان الحياة ليس كلاما يكتب أو أقوالا توجه إنه الآلام التي قد تقتحم النفس وتفتح إليها طريقا من الرعب والحرج إنها النقائض التي تجعل الدنيا تتخم بطون الكلاب وتنيم صديقين على الطوى إنها المظالم التي تجعل قوما يدعون الألوهية وآخرين يستشهدون وهم يدافعون عن حقوقهم المنهوبة.

إن تاريخ الحياة من بدء الخلق إلى اليوم مؤسف! ومن الحق أن يشق المرء طريقه في الحياة وهو موقن بأنه غاص بالأشواك والأقذاء وأما الحقيقة الأخرى فتتعلق بطبيعة الإيمان: فالإيمان صلة بين الإنسان وبين الله عز وجل وإذا كانت صلات الصداقة بين الناس لا يُعتد بها ولا ينوه بشأنها إلا إذا أكدها مر الأيام وتقلب الليالي واختلاف الحوادث فكذلك الإيمان لابد أن تخضع صلته للابتلاء الذي يمحصها فإما كشف عن طيبها وإما كشف عن زيفها. قال الله تعالى: «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين».